الفصل الرابع

مدرسة مصر

تأسيس الحركة العلمية

رأينا كيف أوفد عمر بعثات تعليمية إلى كل من البصرة والكوفة والشام لنشر العلم بين سكانها؛ ولكن تلك القاعدة قد تخلفت في مصر بعد فتحها سنة (٢٠هـ) حيث لم نسمع عن واحد أو أكثر أوكلت إليهم مهمة الذهاب إلى مصر على غرار تلك المدارس المشار إليها، وربما يرجع ذلك إلى أن الفتح لم يستقر إلا في عام (٢٥هـ)، بعد أن أعاد عمرو الإسكندرية من ردتها، أو لأن دخول المصريين في الإسلام لم يكن بشكل جماعي بل بتتابع يمكن معه لمن نزل مصر من الفاتحين ولمن قدمها للاستيطان طوال القرن الأول أن يسدوا حاجة الراغبين في طلب العلم.

وأغلب الظن أن هذه الأسباب مجتمعة هي التي عرقلت إيفاد رجال مخصصين لتعليم من أسلم بهذا الإقليم، هذا ويمكننا أن ندرك أدوارًا ثلاثة تضافرت على تأسيس الحركة العلمية وإقرارها في مصر.

يتمثل أولها: فيمن استقر بها من الصحابة بعد الفتح كخارجة بن حذافة الذي قتله الخارجي (٤٠هـ) بديلاً لعمرو بن العاص، وكان قاضيًا بها، ولم يرو عنه غير المصريين، كما رووا عن محمية بن جزء السابق في الإسلام، ومعاذ بن أنس الجهني صاحب الرواية الكثيرة عن رسول الله، وزياد بن الحارث الصدائي وابنه سهل، وعن مسلمة بن مخلد، وشرحبيل بن حسنة[1].

---

(١) الإصابة ج١: ٣٩٩، ج٣: ٤٢٦، ج٢: ٣٥٢، أسد الغابة ج٢: ٢١٣، ج٤: ٣٧٥، ٣٦٥، ٣٢٤، وطبقات ابن سعد ج٧: ١٩٠، ١٩١، ١٩٤، ١٩٥، والنجوم الزاهرة ج١: ٩٢، ٩٤، ٩٥، ١٠٧، ١٠٨، ١١٠، ١٣٤، ١٣٦، ٣٢٤، خطط المقريزي ج١: ٥٦٢، ٥٦٣.

بينما يعتبر عبد الله بن عمرو لما قام به من جهد في الفترة من (٣٨هـ) إلى ما بعد (٦٠هـ) على وجه يقيني، ولما له من قيمة في العلم والزهد ممثلاً لدور ثان من أدوار تلك الحركة.

أما الدور الثالث فيقع على عاتق جمع من التابعين نقلوا موضوعات العلم إلى مصر كما نقلوا عاطفة الإسلام ومذاقاته إلى نفوس المصريين، من أمثال سليم بن عتر التجيبي (٧٥هـ) الذي شهد فتح مصر وقضى بها، وأبي تميم الجيشاني (٧٧هـ) وقد روى عن عمر وعلي وكان ثقة، وعبد الله بن زرارة الغافقي (٨١هـ) ومن أفضل أبناء الطبقة الثانية الذين عملوا بمصر أبو الخير مرثد بن عبد الله اليزني (٩٠هـ).

وبجانب هؤلاء المغيرة بن أبي بردة، وأبو المغيرة عبد الله بن المغيرة بن أبي بردة الذي روى عنه ابن لهيعة، وعبد الرحمن بن أشيفع بن وعلة، وإسماعيل بن عبيد الأنصاري (١٠٧هـ) الذي روى عنه عمران بن عمرو الغافقي والحارث بن يزيد، وعبد الله بن أبي جعفر من المصريين[1].

ولقد أحدث رجال تلك الحركة بأدوارها الثلاثة آثارًا علمية هامة: ومن أبرزها: تكوين الجيل العلمي للقرن الثاني والذي طفر بالروايات العلمية المصرية من مجرد التلقي والرواية إلى التثبيت والتأليف وإقرار القواعد واتخاذ العلم طريقًا للسلوك والعمل، وأظهرت رجالات هذا القرن حي بن مؤمن المعافري (١١٨هـ) وحي بن هاني المعافري (١٢٧هـ) ويزيد بن أبي حبيب (١٢٨هـ) وجعفر بن ربيع (١٣٢هـ) وسعيد بن أيوب المصري (١٦١هـ) وموسى بن علي بن رباح اللخمي (١٨٢هـ) وعبد الله بن لهيعة الحضرمي (١٧٤هـ)،

(١) رياض النفوس، المالكي ج١: ٦٨، ٦٩، ٨، ٨، ٨٣٢، ٦٩ والطبقات الكبرى لابن سعد ج٧: من ١٩٩ إلى ٢٠٧.

والليث بن سعد (١٧٥هـ)، وعبد الرحمن بن القاسم المالكي (١٩١هـ)[١].

الدعوة إلى الزهد

المتتبع لعملية الفتح في كل بلد يجد أنها كانت فتحًا دينيًّا وروحيًّا في الدرجة الأولى، وعمرانيًّا واجتماعيًّا في الدرجة الثانية، ويلاحظ بشكل واضح أن الدعوة إلى الزهد كعلاج نفسي وإصلاح اجتماعي سايرت الدعوة إلى مبادئ الإسلام عامة.

وقد ظهر هذا الجانب جليًّا في مصر حيثما عمد الصحابة -بلا تكلف- إلى إبداء حال الزهد، وإلى لفت الأنظار إليه مبكرًا ومنذ أن دبت أقدامهم على أرض الكنانة، ليدرك سكانها أن الفاتحين لا يطمعون في خيرات مصر وثرواتها ولا يطلبون دنيا، وقد راعهم ما عليه أهل هذا الإقليم من ترف ونعيم فأرادوا أن يصرفوهم عن المادية إلى روحية متزنة، لا هي رهبنة وكرتنة في حدود الأديرة، ولا هي حرص وشح وانطلاق شهواني مدمر لتسامي النفس وفضائلها.

وقد تركزت الدعوة إلى الزهد -كما سبق الإشارة إليه- في منزعين: أحدهما سلوكي عملي، والآخر نظري:

أما السلوكي فبدأ من تقلل الفاتحين وتقشفهم في اللباس، والطعام والجلسات حتى لمس ذلك المصريون أنفسهم من أول وهلة فذهبوا يقولون للمقوقس: رأينا قومًا الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا همة، إنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم[٢]، استمر كثير من الصحابة الذين استقروا بمصر على هذه

---

(١) طبقات ابن سعد ج٧: ٢ ٢ ٢ ٤ ٢، والنجوم الزاهرة لابن تغزى ج١: ١٤٣، ٢٣٨، ج٢: ٧٧ ٧٨ ووفيات الأعيان ج٢: ٢٤٣.

(٢) خطط المقريزي ج١: ٥٤٤، ٥٤٦.

الحال في الزهد والاجتهاد حتى عمرو بن العاص نفسه رغم انغماسه في الفتن وضلوعه بها تندم في آخر حياته على سلوك الدنيا.

وروي عنه أنه كان يسرد الصوم، وقلما يصيب من العشاء أول الليل أكثر ما كان يأكل في السحر حسبما ذكر أبو قيس مولاه، ناهيك عن ولده وفتاه عبد الله بن عمرو الذي يعتبر بحق مؤسس مدرسة مصر في الزهد بأهم خصائصها العامة.

وأيضًا حمل التابعون من أبناء القرن الأول الذين سقنا أسماءهم تبعة نشر الزهد بين المصريين وتثبيته بعد وفاة عبد الله بن عمرو.

وأما الدعوة إليه عن طريق الكلمة فإنما جاءت أولاً على لسان عبادة بن الصامت في أول لقاء بين الفاتحين والمقوقس فأعلن أمامه أن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه لليله ونهاره، وشملة يلتحفها فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله، واقتصر على هذا الذي بيده ويبلغه ما كان في الدنيا؛ لأن نعيمها ليس بنعيم، ورخاءها ليس برخاء، إنما النعيم والرخاء في الآخرة[1].

ورغم أن هذا الملك كان وجلاً من لقاء عبادة لشدة سواده إلا أنه لم يجد محيصًا إزاء ما سمعه من رجاله وما سمعه من سفير المسلمين عبادة من أن يقول: أيها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك، ولعمري ما بلغتم إلا بما ذكرت، وما ظهرتم علي من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها.

ووالى ابن عمرو الدعوة إلى الزهد فكم كان يهتف دائمًا: إنا كنّا مع رسول

(١) النجوم الزاهرة ج١: ١٢، ١٣.

اللـه تهمنا الآخرة ولا تهمنا الدنيا[1]، وإنّا اليوم مالت بنا الدنيا، ويقـول ابـن مسعود التجيبي التابعي: حب الدنيا رأس كل خطيئة[2] وكان أبو سعيد كيسان المقبري (١٠٠هـ) الذي سكن المقبرة، والمغيرة بن أبي بردة وإسماعيل بن عبيـد الأنصاري من أكبر التابعين الذين أرسوا قواعد الزهد المصري حتى اقتدى بهـم بعض مسلمي مصر في القرن الثاني.

ومن الضروري أن نعقب على نشوء الحركة العلمية والروحية بالنتائج الآتية:

أولاً: إن ظروف الحركتين في كل من الشام ومصر متشابهة إذ ندرك بصفة يقينية عدم الإقبال الشديد من السكان المصريين على العلم والزهد الإسـلاميين طوال القرنين الأولين؛ ولذا تعمدنا ذكر بعض الأسماء لنعلم أن الأكثرية الساحقة إن لم يكن الجميع كانوا من أصول عربية ولدوا في الجزيرة ثم رحلوا إلى مـصر وعلموا وزهدوا بها كرجال القرن الأول أو ولدوا على أرض مـصر وتعلمـوا وزهدوا كغالبية رجال القرن الثاني.

ويرجع السر في ذلك إلى أن مصر -كالشام- بلد امتزجت فيه الأجناس من قبط وروم وعرب وأكراد وديلم وحبشان وغير ذلك من الأصناف[3]، وانتشرت فيها المذاهب القبطية كالملكانية واليعقوبية والميانية، وليس من السهل على هـذه الأجناس وأرباب المذاهب الانتقال فجأة مما هم عليه ونبذه، والدخول في الـدين الجديد وقبولـه بكل ما يحمل من عوامل التسوية بين الأفراد.

وصبغ الجميع بصبغة الجماعة الواحدة ذات العقيدة التوحيديـة والـشعائر

---

(١) أسد الغابة ج٣: ٢٣٤.

(٢) المكي رياض النفوس ج١: ٢٦٨، ٢٩٠.

(٣) انظر الفتوحات الإسلامية ج١: ٤٦ ومعجم البلدان لياقوت ج٦: ٣٧٧. وبدائع الزهور ج١: ٢٢ ودائرة معارف وجدي ج٩: ٥٤.

الدينية المتحدة، والعاطفة الرقيقة الناتجة من النظر والعمل بهذا الدين، كما أن الحروب الداخلية التي خاضها المصريون في فريقي علي ومعاوية، والحروب التي خاضوها في فتح إفريقية، وما هم عليه من ترف ونعيم وثراء شغلهم عن التعليم والزهد كما جاء في النصين السابقين لابن عمرو وابن مسعود التجيبي.

ثانيًا: ويترتب على النتيجة السابقة حقيقة بارزة مفادها أن حركة العلم والزهد ما دامت ذات لون إسلامي، ويحملها رجال من العرب فهي دينية عربية أصيلة لا تمت بوشائج التأثر إلى دين آخر، ولم تقم على أكتاف الموالي خاصة خلافًا لمن يريد أن يسلب العرب هذه الميزة العلمية ليوكلها إلى المجهود البشري الذي قام به الموالى؛ لأننا نرى أن عتقاء العرب من الأجناس الأخر لم يتلقوا علومهم، ولم يتذوقوا عاطفة الإسلام وروحانيته إلا من خلال العرب أنفسهم كيزيد بن أبي حبيب مولى بني عامر بن لؤي من قريش.

ثالثًا: ومما يؤكد الحقيقة ويزيدها جلاء ما نلمسه من اهتمام علماء مصر في القرن الأول والثاني بالقرآن حفظًا وفهمًا، وبالسنة رواية وتدوينًا كما جاء في تراجم كل من سبق من العلماء والزهاد.

وتعتبر مدرسة مصر أسبق المدارس حيازة لكتب السنة المدونة، حيث كانت نسخة زياد بن الحارث الصدائي الصحابي الجليل اليمني أصلاً، المدني صحبة، المصري إقامة من أقدم ما كتب في الحديث وظلت معه في مصر حتى توفي فتركها لابنه سهل[1]، وعنها أخذ ابن حنبل وأبو داود والنسائي وابن ماجة.

وكذلك كان عبد الله بن عمرو كاتبًا كزياد سجَّل وراء رسول الله

(١) أسد الغابة ج٤: ٣٧٥.

كل ما سمعه حرفًا بحرف، وأودع هذا في صحيفة سماها الصادقة[1]، وبذا اعترف أبو هريرة بتفوقه عليه حيث قال: ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله مني إلا عبد الله بن عمرو فإنه يكتب ولا أكتب[2].

وإذا وضعنا في اعتبارنا أن عبد الله هذا قال: حفظت عن رسول الله ألف مثل[3] وأنه حدثنا بقوله: استأذنت النبي ﷺ في كتابة ما سمعت منه فأذن لي فكتبته، فتكون صحيفة ابن عمرو حوت على وجه اليقين أكثر من ألف حديث، ويثبت أن تدوين السنة بدأ بإذن من رسول الله، وأنه كان على غرار تدوين القرآن في أيام رسول الله، لكل كاتب أن يكتب ما يسمع.

ومن الواضح أن هذه الصحيفة صاحبت عبد الله أثناء وجوده في مكة حتى سأله عنها مجاهد فقال له: هذه هي الصادقة فيها ما سمعت عن رسول الله ليس بيني وبينه أحد[4] وأنها رحلت معه قطعًا إلى مصر، وبها وبنسخة زيادة يكون المصريون قد وجدوا أمامهم نسختين عن الصحابة في القرن الأول، وهو ميراث لم يوجد في أي مدرسة أخرى.

كما وجدوا كذلك نسختين في القرن الثاني:

إحداهما لعبد الرحمن بن خالد بن مسافر (١٢٧هـ) من رواية ابن شهاب الزهري[5]، وقد نقلها المصريون.

---

(١) طبقات ابن سعد ج٧: ١٨٩.
(٢) أسد الغابة ج٣: ٢٣٣.
(٣) طبقات ابن سعد ج٧: ١٨٩
(٤) نفس المرجع السابق.
(٥) نفسه ج٧: ٢٠١، ٢٠٢.

والثانية هي خريطة عبد الله بن لهيعة الحضري (١٧٤هـ) التي علقها في رقبته وسجل فيها كل ما سمع في رحلاته وجولاته الكثيرة من أجل جمع الحديث[1] ولم يكن متهمًا عند المصريين لا أولاً ولا ثانيًا بل لم يزل أول أمره وآخره واحدًا، حسبما قال ابن سعد، ويقول الأتاكي: هو الإمام الحافظ عالم الديار المصرية وقاضيها ومحدثها، وإنما شاعت كتابة الحديث في مصر أكثر من غيرها لعدم وجود كثير من الصحابة رواة الحديث بها، وكأنهم استعاضوا عن المصارد الأصلية بالمراجع المكتوبة، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى من يدرينا لعل الصحابة الذين كتبوا الحديث تعمدوا نقله للمصريين ليأخذوا عنه كبديل لكثرة الصحابة الذين افتقدتهم مصر بصورة لا تضاهي غيرها من البلدان المفتوحة، وتحملوا جهد السفر والإقامة هناك تحقيقًا لتلك الغاية ثم حذا حذوهم رجال القرن الثاني في التدوين والجمع، أو لأن الكتابة لا الحفظ هي التي تناسب حال المصريين الذين عرفوا الكتابة منذ عصور ما قبل التاريخ، ومن هنا فإن عقولهم يصلح معها هذا النوع من الثقافة دون استظهار المعلومات عن سماع.

وهذه الحقيقة بما يتصل بها من جهد تضع أيدينا على أمور هامة: منها أن منهج تلك المدرسة هو المنهج السني المكتوب والمروي، والذي ظل طابع مدرسة مصر إلى يومنا هذا، ومما ساعد على نقائه خصوصًا في القرنين الأولين ما نراه من عدم ميل المصريين إلى النزعات العاطفية أو المذهبية كما مال فريق من البصريين والكوفيين، وإذا كان الأمر كذلك فإن فكرة الزهد ظلت في إطار هذا المنهج وفي حدوده المقررة خاصة إذا ما تأكدنا من أن رجال الحديث والمدونين له هم عمد تلك الحركة الروحية ومؤسسوها.

---

(١) نفسه ج٧: ٢٠٤ والنجوم الزاهرة ج٢ ٧٧: ٧٨ ووفيات الأعيان ج٢: ٢٤٣.

رابعًا: وجدت عدة عوامل أدت إلى تأخير علم الفقه: أبرزها ما قلناه من عدم اهتمام سكان مصر الأصليين بالتعلم والزهد، وإلقاء المهتمين على عاتق الفاتحين والنازحين من العرب وهم بالطبيعة قلة، والمعروف أنه كلما ساهمت الأكثرية في جهد ما كان نصيب التفنن والابتكار فيه أوسع.

وأهم تلك العوامل وأقواها هو الركون إلى ظاهر النصوص والاكتفاء به، مع الأخذ بالفهم والاجتهاد لدى كل من سليم بن عتر التجيبي التابعي الذي شهد فتح مصر، واعتبره الأتاكي أول من قضى بمصر (٣٩هـ)[١]، ولدى خارجة بن حذافة المقتول (٤٠هـ) الذي قضى لعمرو بن العاص في فترة ولايته الثانية[٢].

و لم يتحول هذا الفهم والاجتهاد عند علماء وزهاد القرن الأول إلى علم في الفقه على غرار فقهاء المدينة السبعة أو إلى نظام في القضاء ودقة فيه مع السعة في الفقه كما وجد عند شريح القاضي بالكوفة.

ورغم أن علم الحلال والحرام والفقه قد انتقل إلى مصر على يد رجل كابن عمرو خاصة إلا أنه لم يجد اهتمامًا واسعًا من جمهور المصريين الذين انشغلوا بالحديث عن الملاحم والفتن[٣] حتى جاء يزيد بن أبي حبيب (١٢٨هـ) فكان أول من أظهر بها هذه العلوم، ثم تلاه في تقرير مذهب فقهي خاص الليث بن سعد (١٧٥هـ) وفي نشر المذهب المالكي كل من عبد الرحمن بن القاسم (١٩١هـ)، وعبد الله بن وهب (١٩٧هـ) وأشهب بن عبد العزيز (٢٠٤هـ) أيضًا.

وإذا تتبعنا أصول هؤلاء الفقهاء لا نجد من بينهم مصريًا صرفًا نبغ في هذا

---

(١) النجوم الزاهرة ج١: ١٩٤.

(٢) طبقات ابن سعد ج٢: ١٩٠.

(٣) النجوم الزاهرة ج١: ١٤٣ – ٢٣٨.

العلم وتوسع فيه، الأمر الذي يدعونا إلى القول بأن العمل والزهد معًا كانا دعوة عربية الأصل والدين واللغة، وإن تقبل المصريون الإسلام ودخلوا فيه أفواجًا إلا أنهم ظلوا إلى القرن الثالث الهجري بمنأى عن النبوغ العلمي والروحي الملحوظ ثم انطلقوا بعد ذلك إلى أن صارت مصر قبلة العلماء خاصة بعد قيام الأزهر برسالته.

الاتجاه الزهدي المصري

الدارس لحركة تأسيس الزهد وخصائصه في كل من مصر وإفريقيا يجد أنها متشابهة في كثير من ألوانها وتياراتها؛ نظرًا لأن معظم الزهاد الذين قاموا بنشر الزهد هنا هم الذين رحلوا إلى إفريقيا بأمر من عمر بن عبد العزيز ليعلموا بها، أو رحلوا إليها من تلقاء أنفسهم كأبي سعيد المقبري، ولأن كثيرًا من زهاد إفريقيا جاءوا إلى مصر واستوطنوها بعد أن وضعوا بذور الزهد وأثمرت في إفريقيا مثل أبي عمران موسى بن علي بن رباح بن قصير اللخمي (١٦٣هـ)، وأبي سليمان خلاد بن سليمان الحضرمي (١٧٨هـ)، وأبي زكريا يحيى بن عبد السلام (٢٠٠هـ) الذي سكن القيروان ثم خرج إلى مصر فتوفي بها ودفن بالمقطم، وأبي محمد عبد الله بن فروخ الذي ولد بالأندلس ثم سكن القيروان ثم نزل مصر وتوفي بها (٢٠٦هـ) ودفن أيضًا بالمقطم.

ولما كنا سنعرض لمدرسة إفريقيا فإننا سندع الحديث عن هؤلاء وأقوالهم واتجاهاتهم قليلاً إلى أن نتحدث عن مدرستهم التي ولدوا على أرضها وحسبوا بين سكانها على وجه الحقيقة، وبالتأمل الدقيق ندرك أنه قد تطايرت في آفاق الروحية المصرية روائح الحديث عن العزلة، والصمت، والتوكل، والصحبة، والأوراد، وعن لباس الصوف، والتخشن لدى المقبري والتجيبي وابن عبيد الأنصاري وعمرو بن الحارث[1]، إلا أننا مع هذه الألوان والتيارات الشائعة نلحظ اتجاهات جديدة تميزت بها مدرسة مصر دون غيرها من أهمها.

---

(١) رياض النفوس المكي ج١: ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٨٠، ٧٠، ٧١، ٨١.

أولا: الزهد عن ثراء

ترتكز هذه السمة على أسس أصيلة ترجع إلى الطبيعة الكونية التي يعيش عليها المصريون وما فيها من خصوبة وثراء في أوصافها لدى عمرو بن العاص والمقريزي، وابن تغري الأتاكي والمسعودي[1]، وبصفة خاصة تلك الفترة التي افتتحت فيها مصر إذ كانت على وفرة واسعة، كما ترجع أيضًا إلى طبيعة السكان وما يتصفون به من جود وقبول لتبدل الصفات حسبما أشاد بهم عبد الله بن عمرو في قوله: أهل مصر أكرم الأعاجم كلها وأسمحهم يدًا[2]، وقال المقريزي: أخلاقهم يغلب عليها الاستحالة والتنقل من شيء إلى شيء[3].

وطبقًا لهذه الأسس الثلاثة المنحصرة في الثراء الشائع والعام والذي يصعب التخلي عنها لكونه هبة ممنوحة وظاهرة طبيعية منتشرة، وفي المرونة النفسية والأخلاقية التي يسهل معها تبديل الصفات وتغييرها وهي قاعدة هامة لتطور السلوك وتشكيله، وفي الفضيلة الهامة التي نمت عن السخاء والكرم فإننا نرى أن عبد الله بن عمرو لم يقاوم هذه الطبائع، وإنما أبقاها على حالها ووجهها إلى ما يصلح الفرد دينًا ونفسًا، وخلقًا وإلى ما يصلح الجماعة تعاونًا وقوة، وأرسى قوام الزهد على العطاء الجود لا على التجرد الكامل والفقر المعوز، وكأنه دخل للمصريين من الباب الذي يتناسب معهم طبيعة ونفسًا بالإضافة إلى أن هذا المسلك كان هو لون الزهد عند ابن عمرو قبل أن ينتقل إلى مصر.

فنراه مع حبه للفقر والفقراء يرى أن الفقر ليس العدم، وإنما هو الافتقار ونزع الحرص والشح، وكثرة البذل والإعطاء، وإذا تحقق هذا فلا بأس مما تحت

---

(١) انظر مروج الذهب ج١: ٢٧٣، وخطط المقريزي ج١: ٨٨، ٥٤٥ وما بعدها والنجوم الزاهرة ج١: ٢٨.

(٢) النجوم الزاهرة: ج١: ٢٣.

(٣) خطط المقريزي ج١: ٨١.

اليد من المال، ولا خير أن يملك الزاهد الثقل الكثير كما كان يملك؛ ولذا تعجب البصريون من كثرة أحمالـــه حين وفدوا عليه بمكة مع ما سمعوا عن دينه وتواضعه واجتهاده فقالوا: أكل هذا له؟ وكنا نحدث أنه من أشد الناس تواضعًا فقيل لهم: إن عبد اللـــه بن عمرو رجل غني، وإنه يرى حقًّا عليه أن يكثر من الـــزاد لمـــن نـــزل عليه من الناس[1]، أي أنه يعدها لضيوفه لا لشهوته ولا لحرصه.

كما تدلنا أقوالـــه أيضًا أنه تعبد اللـــه بالإنفاق، كما تعبده بأوجه الطاعات والقربات الأخرى حتى قال: من سقى مسلمًا شربة ماء باعده اللـــه من جهـــنم شوط فرسي فلنـــزعته الخاصة، ولما عليه المصريون من خصائص طبيعية وبشرية وَجَّهَ الزهد وجهة لا تتنافى مع المال الكثير أو الغنى، وإنما تتفق معـــه وتـــسايره وتؤهل الزاهد أن يكون صاحب نفس طيبة جيدة بما تبذل وتعطي.

وقد برز هذه الاتجاه واضحًا في سلوك إسماعيل بن عبيد المصري الذي أغرم بالتصدق[2]، وفي أخلاق مغيرة بن أبي بردة الذي ما كان يرد سائلاً قط، ويقول آمرًا خازن أمواله: أنفق أصلحك اللـــه فوالذي يحلف به ما من إناء أفرغه إلا وجدته ملآنا.

وأظهر ما يكون هذا اللون عند الليث بن سعد فهو الذي أعطـــاه تكييفًـــا سلوكيًّا وخلقيًّا يمكن الاقتداء به، إذ يحثنا أبو نعيم أنه ملك خمسين ألفًا أو ثمانين ألفًا[3] على قول آخر، ويرى الخطيب البغدادي أنه كان يستغل عـــشرين ألـــف دينار كل سنة[4]، وبالغ ابن خلكان في دخلـــه كثيرًا[5] ويعلل هذا الملك بأنـــه

(١) الحلية ج١: ٢٨٩، ٢٨٨.
(٢) رياض النفوس ج١: ٧٠، ٧١، ٨١.
(٣) الحلية ج٧: ٣٢٢.
(٤) تاريخ بغداد ج٣: ٥، ٧، ٨.
(٥) وفيا ت الأعيان ج٣: ٢٨٠.

يصون وجه المؤمن عن الذلة إلى الخلق، ويحفظ على العالم دينه وعلمه.

وقد أعطى منصور بن عمار ألف دينار فقال لـه: ماذا أفعل بها فقال: صُنْ بها الحكمة التي آتاك اللـه تعالى[1]، ولو أن الغاية من جمع المال هي الصيانة فقط مع الحرص عليه لعد مهلكة وما سلم صاحبه من آفاته، وإذا فلا بد لكي ينجو العبد من عللـه أن يكون زاهدًا فيه، راغبًا عنه، محبًا لإنفاقه في وجوهه، وهذا ما قام به الليث بن سعد إذا أحب التقلل والتقشف في طعامه وثيابه فما كان يأكل اللحم إلا أن يمرض[2] كما كان نبيلا سخيًا لـه ضيافة[3] حسبما وصفه ابن سعد.

وقال أبو نعيم: هو السري السخي ..، لعلمه عقول ولما لـه بذول[4]، وعده ابن خلكان من أعظم الكرماء الأجواد[5]، لأنه إذا تصدق أعطى بالآلاف، وإذا أطعم جعل الدنانير الأكثر لمن يأكل كثيرًا[6]، وبلغ به الحال مع تلك الكثرة أن قال: ما وجبت علي زكاة قط[7] لذهاب مالـه وخروجه عنه وبذلـه إياه في وجوه الخير فلا يبقى ما يحول عليه الحول.

وبهذا نرى أن الليث قد وضع الإطار الصحيح لغنى الزاهد، وكيف الحال تكييفًا تستفيد منه النفس وتسلم به، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن هذا الإطار ظل طابع الحياة الروحية في مصر دائمًا سواء في عصر الزهاد أم في عصر الصوفية عند أبي الحسن الشاذلي والدسوقي أم في عصر الدراويش.

---

(١) نفسه.
(٢) تاريخ بغداد ج١٣: ٨، الحلية ج٧: ٣٢٢.
(٣) طبقات ابن سعد ج٧: ٢٠٤.
(٤) الحلية ج٧: ٣١٨.
(٥) وفيات الأعيان ج٢: ٢٨٠.
(٦) الحلية ج٧: ٣٢٠ — ٣٢٢.
(٧) تاريخ بغداد ج ١٣ — ٨، والحلية ج٧: ٣٢٢.

ومن باب الأصالة هنا أن نفرق بين الزهد عن ملك والزهد عن غنى، فنرى أن الزهد عن ملك لا يعني إلا الاستغناء بما يوجد عند الزاهد من مال ضروري، أي ما يكفي ضرورات الزاهد ويعفه عن المسألة، فهو مقابل للتجرد الكامل.

أما الزهد عن غنى فهو فوق التجرد، وفوق الزهد عن ملك لكون الزاهد يحوز فيه مالاً فوق الحاجة والضرورة، ثم يقوم ببذله وإعطائه عن رضا وسخاء.

ويمكن أن نوازن بين الثلاثة فنقول: الزاهد المتجرد متحرز والزاهد صاحب الملك الضروري متوق متعفف، والزاهد الغني قوي متمكن والإسلام يصحح لكل أرباب الثلاثة نظرته ووجهته ما دامت النوايا سليمة والنفوس طيبة، وقد سبق أن دللنا على التجرد وعلى الزهد عن ملك.

أما الصنف الثالث وهو الغنى الجواد فإليه الإشارة بقوله سبحانه ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾[الطلاق: ٧] وقال سبحانه: ﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾[فاطر: ٢٩] ويقول رسول الله ﷺ: «**خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول**»[1] وروى أبو هريرة عنه ﷺ: «**يا بن آدم أنفق أنفق عليك**».

وقال: «**الأكثرون أموالاً هم الأخسرون إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم**».

قال النووي فيه الحث على الصدقة في وجوه الخير[2] وقال رسول الله ﷺ: «**ما يسرني أن لي أحدًا ذهبًا تأتي علي ثالثة وعندي منه دينار إلا دينار أرصده لدين علي**» وفي هذه النصوص إقرار صريح للون الذي سار عليه الليث وغيره من

(١) رواه الخمسة إلا الترمذي.

(٢) مسلم ج١: ٢٦ – ٢٧.

الزهاد المصريين، حيث أباحت النصوص الغنى، وحثت على الإنفاق، وبين الرسول أن حاله الملك والبذل، والفقر بعد التصدق لا الفقر بمعنى العدم فإن النبي قد استعاذ منه، كما أن هذا اللون من الزهد كان الغالب على معظم الصحابة الذين آثروا وزهدوا وأنفقوا[1].

ثانيا: الأحاسيس والمشاعر

يحدثنا المقريزي أن أهل مصر محبون للإسرار، ميالون إلى استكناه الخفايا، والتحدث عن المستترات، وقد رقت تلك الحاسة حتى صاروا يخبرون بالأشياء قبل وقوعها وبما يكون، وينذرون بالأمور المستقبلة[2]، ولسمو تلك الصفة فيهم كان المستخرج للعلوم الدقيقة ... أهل مصر ... ، وإذا أضفنا إلى هذا أن أنفسهم طيبة وهموهم كثيرة استنتجنا من وراء ذلك كله أن المصريين بفطرهم أكثر استعدادًا لقبول الزهد، والانخراط في سلك رجال الفتوة وأصحاب الهمة، وأنهم أدنى الطبائع إلى الاستفادة بالدعوات الروحية، وأقربهم من استخراج الحقائق والتوصل إلى الدقائق والرقائق.

وإن كنت أؤكد أن هذه الفطر النقية لم تؤت ثمارها العرفانية في استكشاف الأسرار، واستكناه الحقائق إلا في بداية القرن الثالث الهجري على يد ذي النون المصري، فهو النموذج المعبر عن تلك الصفات الفطرية للمصريين حقًا.

وما نشمه من روائح الروحية في القرنين الأولين ضيق محدود للغاية لا يتجاوز حال الخوف الذي انتاب بشدة عبد الله بن وهب (١٩٧هـ)، ولا يتعدى بضع عبارات علن علامة الولي والحكيم وردت على لسان سعد بن مسعود التجيبي.

---

(١) البخاري ج٢: ١٣٦.

(٢) خطط المقريزي ج١: ٨٨ – ٨٩.

وما أود أن أختم به هذه الخصائص هو التركيز على أن الحياة الروحية ليست عدمًا، وليست مقصورة على حال الفقر والفقراء، وإنما هي شاملة للفقر والغنى والفقراء والأغنياء، ويمكن للأثرياء أن يسلكوا هذا الطريق، وأن يستفيدوا نفسًا وقلبًا، وأن يفيدوا المحتاجين بذلاً وإعطاء، ولتلك العملية قيمة اجتماعية خاصة فوق ما لها من تقدير ونفع ذاتي.

وأيضًا لا بد من التأكد من أن حركة الزهد في كل مدرسة تلونت بتلون وظروف الطبيعة الكونية والبشرية، وهي حركة واعية زكية لم تقف عند حد معين من التهذيب والتمرين وإنما نوعت الأساليب، وميزت بين علاج كل مدرسة بما يتناسب مع ظروف كل مجتمع.